

الرابطة التونسيّة
للمُقرئيــــن
والقرّاء المرتّلين
تــونس - 2023
قصيـــــدة
البردة
قراءة وفهم
للإمام البصيري
في مدح رسول الله
صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه
اعتمدنا : شرح الأستاذ محمّد رضوان أحمد



ترجمة العلامة الإمام شرف الدّين أبي عبد الله محمد البُوصيري ﷺ

هو الإمام العلامة العارف بالله الصادق في محبة رسول الله. محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجي (نسبة إلى صنهاجه بلدة ببلاد المغرب الأقصى) كان أحد أبويه من دلاص والآخر من بوصير. وهما قريتان من قرى صعيد مصر فنسب إليهما ، فقيل له الدلاصيري ولكنه شُهر بعد ذلك بالبوصيري

وكان مولده في الأولى ومرباه في الثانية. ولد رحمه الله بدلاص في أول شوال سنة 608 هجرية وتوفي سنة 695 ودفن بالإسكندرية فكان عمره حين وفاته 87 سنة. تعلم في صباه الكتابة والقراءة وحفظ القرءان الكريم وتلقى مبادئ العلوم وتدرج في علم الأدب والكتابة فبرز في الشعر والنثر تبريزا حببه إلى حكام مصر فولوه بعض الأعمال الكتابية في مديرية الشرقية ببلبيس وقد كان في أول عهده يسلك في شعره مسالك الشعراء من مدح وذم وشكوى. ولكنه في كهولته تزهّد واتصل بالإمام الواصل العارف بالله أبي العباس أحمد بن عمر المرسي الأنصاري مريد الإمام عبد السلام بن مشيش الحسني فصفت نفسه وصلح أمره وخلص لعبادة ربه. وفُتحَ عليه في مدح رسول الله ﷺ فمدحه بقصائد تزهو على شعر الفحول بالسهولة والجمال والجلال طاربها صيته وخلد بها ذكره.

فمنها البردة وهي (القصيدة الميمية) التي نحن بصدد شرحها والتي نظمها في علة أصابته فبريء منها بسببها ، إذ أنشدها على رسول الله في المنام فخلع عليه بردته الشريفة ومسح على جسده فعوفي لوقته، ومنها الهمزية التي جمعت سيرة النبي مفصلة وغيرهما مما هو مشهورٌ معروف لدى الخاص والعام نفعنا الله بالممدوح والمادح في دار الدنيا ودار السلام... آمين





الفصل الأول في الغزل وشكوى الغرام

1 - أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ *** مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُّقْلَةٍ بِدَمِ

(مَكَانٌ بِالْحِجَازِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَة) (سَوادُ العَين وبَيَاضُها)

أتذكَّرْتَ أمَلَكَ ومنتهى ما تصبو إليه نفسك بتلك الأماكن النائية التي عجزت عن الوصول إليها فبكيت هذا البكاء الحار الذي امتزج فيه دمعك بدمك؟

2 - أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ *** وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ

(نَاحِيَة) (مَوضِع بِالمدِينَة) (أَضَاءَ) (وَادٍ بِالمدِينَةِ المنَوَّرَة)

أم هبت الريح من جهة هذه الديار فشممت شذا أنفاس الحبيب. أومض البرق فذكرت بريق ثغر. فيه ماء حياتك ومنبع ارتوائك؟

3 - فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا *** وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ

(كُفِّي عَنِ الدَّمْعِ) (سَالَتَا بِالدَّمْعِ) (انْتَبِه) (يَزْدَادُ عِشقًا)

ما لك لا تجيب، أتظن أن سكوتك هذا يخفي ما عندك من حب. وإذا سلمنا أنك غير محب فما لعينيك أن زجرتهما عن البُكاء لا تكفان. وما لقلبك إن قلت له ارجع إلى طريق الهدى يعصك ويظل هيمان؟

4 - أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَتِمٌ *** مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمِ

(العَاشِق) (سَيَلَانُ الدَّمْعِ) (اشْتِعَالَ القَلْب)

أحسبت أن حبك يخفى على الناس، وقد ظهر بهذا الدمع المُنسكب والقلب الملْتهب؟

5 - لَوْلاَ الْهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ *** وَلَا أَرِقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ

(تُسِل) (حُرِمْتَ النَّوْمَ) (شَجَرٌ بِالحِجَاز) (جَبَلٌ بِالحِجَاز)

لولا الهوى يا صاح لم ترق هذه الدموع ، ولا حُرمت لذيذ النوم لذكرى ديار نائية ليست لك بوطن، ولا كنت في واد وعقلك في واد

6 - فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدَتْ *** بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ

(شُهُودٌ صِدْق)

فيا عجباً من إنكارك الحب، وقد شهد به عليك شاهد عدل إن أصررتَ على الكتمان، كان فيهما ما ينفي كل شك، هما الدمع والسقم، وفوق هذا لدينا حجة أُخرى، هي أن دمعك سبق سقمك، ولو سبق الضعف الدمع لتوهمنا أن الدمع نتيجة الألم، فما فائدة كتمانك وقد قامت عليك الحجة ولزمك الدليل؟





7 - وَأَثْبَتَ الْوَجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وَضَنًى *** مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالْعَنَمِ

(الحُزن) (طَريقي) (بُكاء) (الهُزال والضعف) (زَهر أصفر) (زَهر أحمر)

وزيادة عن كلّ ما تقدم من أدلة فقد أكد لنا وجدَك علامتان محسوستان هما اصفرار وجهك واحمرار دمعك وهما من علامات العشاق، فأولى بك الاعتراف لعل الله الذي ابتلاك أن يهدينا إلى مداواتك بما يزيل علاتك

8 - نَعَمْ سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِي *** وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بِالْأَلَمِ

(خَيال) (فَحَرمني النّوم)

أما وقد ظهر حبي بما لا سبيل معه إلى الإنكار، فنعم يا صاح، سرى خيال حبيبي فنبهني من سبات الفكر فيه إلى يقظة الحرمان منه إذ فرحتُ بإقباله فأسرعت للقائه، فإذا أنا في مكاني وهو حيث أعلم فما أشأم عجلتي التي قطعت لذيذ أحلامي ولكن هي سنة الحب فإن من طبعه أن يقطع أسباب اللذات بسيف الألم، وهكذا كان معي إذ حرصت على التَّمتُّع بجماله، فحال بيني وبين خياله

9 - يَا لَائِمِي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيِّ مَعْذِرَةً *** مِنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

(الطَّاهِر)

لما أقر بحبه أحس بخطئه في إذاعته سره فوجه معذرته إلى من يتوقع منه اللوم على الحب فقال يا لائمي في اعترافي بهواي البريء من كل شين إني أعتذر إليك فيما فرط مني. ولو أنصفتني ما وجهت إلي أي لوم

10 - عَدَتْكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ *** عَنِ الْوُشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمِ

(بَلَغتْكَ) (المُفسدين بين النّاس) (بِمُنتهٍ)

لأن سري قد أفشاه الدمع، ودائي لا دواء له إلا بالوَصل، وهو بعيد الحصول لعُلُو مقام المحبوب وبعد داره، فحالي تتطلب الرحمة

11 - مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لَكِنْ لَّسْتُ أَسْمَعُهُ *** إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ

(أخلصتَ لِي) (اللَّائمينَ) (لَا يَسمَع)

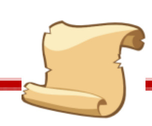
أنت أخلصت لي النصيحة إذ خطأتني في اعترافي بحبي، أو استرسالي في طريق هلاكي ، غير أنني مع علمي بحُسن نيتك أعتبر نُصحك عذلاً ما دام ينهاني عن التَّفوه بذكر من أحببت فلن اسمع لك لأنني محب وأُذُن المحب عن العُذال صمَّاء

12 - إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلِي *** وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ

(ظَننته غير ناصِحٍ) (لَوْمِي)

فلا يسؤك إعراضي عن نُصحك فقد اتهمت ما هو بعيد عن كل شبهة في نصيحة منك وهو الشيب فقد أنذرني بقرب الأجل وحثني على ترك الأمل ورغَّبني في صالح العمل فتماديت في الغرور ولازمت الشرور اعتمادا على أن الله غفور





الفصل الثاني في التحذير من هوى النفس

13 - فَإنَّ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ *** مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ	(نفسي) (الكِبَر)

وماذا أصنع بنفسي التي تأمربالشرّوتنهى عن الخيرحتى مع تذكيرها بالموت ببياض الشعر. وضعف الجسم والبصر

14 - وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى *** ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ	(إكرام) (نَزَل) (مُسْتَتِر)

فها هي لم ترجع عن المحرمات، ولم تَرعَولقرب الممات ولا أعدّت من فعل الخيروالطاعة ما يليق بإكرام هذا الضيف الذي نزل برأسي بغيراستئذان

15 - لَوْكُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ *** كَتَمْتُ سِرًّا بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ	(أقَدِّرُه) (ظَهَر) (بالصبغة)

ولوكنت أعلم أنني سأهينه هذه الإهانة، ولا أحترمه بالإقبال على الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه لواريته عن العيون بالسواد احتراماً له وحفظاً لِكرامته ، ولكنه عمي الشباب وضلال الغرور

16 - مَنْ لِّي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا *** كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجُمِ	(شُرُود) (ضَلَالَتِها)
17 - فَلَا تَرُمْ بِالْمَعَاصِي كَسْرَشَهْوَتِهَا *** إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ	(تطلبْ) (الّذي لا يَقنَع)

فمن هذا الذي يرشدني إلى من يرد نفسي عن فيافي الظلم إلى حظيرة الهدى ولو استعمل في سبيل ذلك ما يستعمله الفارس في إزالة اعوجاج فرسه من العُنف والشّدة. من هذا الذي يفعل ذلك حتى ألجأ إليه وألقي أزمتي بين يديه؟ أأتركها تهيم في وادي المعاصي حتى تسأمها فتعود إلى الطاعة مستعذبة موردها غيرمنحرفة عنها أمّاذا أفعل؟ ومن يضمن لي رجوعها والطعام يقوي شهوة الشره إلى الإكثارمنه؟

18 - وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى *** حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

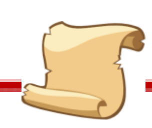
وما ذلك إلا لأن نفس الإنسان كالطفل الصغيرإن أهملتَها سارت في طريق الشَّر الذي يُلائم طبعها وإن زجرتها ومنعتها امتنعت كما أنك إذا طاوعت الطفل كلما طلب الرضاع كبروهو مُكِبٌّ عليه وإن فطمته انفطم ورجع

19 - فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَاذِرْأَنْ تُوَلِّيَهُ *** إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ	(أبعِدْ عنك هَوَاهَا) (تُطيعَه) (يَقتُل) (يَفْضَح)

فلا تُجِب طلباتها فمن ساروراء هوى نفسه هلك أو ضاع شرفه وكلاهما أمرٌعظيم وخطبٌ جسيم

20 - وَرَاعِهَا وَهْيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ *** وَإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ الْمَرْعَى فَلَا تُسِمِ	(رَاقِبْها) (مُتَدَفِقَةٌ) (لا تتركْها)

وكن معها على الدوام كالراعي مع ماشيته بمنعها عن أكل ما لا يُباح، وإن هي استحلَت الشَّرّفلا تُطل لها الحبل بل قيدها بقيد من قيود خوف الله الحديدية



21 - كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً *** مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ

ولا تغتر ببلاغتها وقوة حجتها عند مخاصمتها فكم حسنت القبيح وقبحت الحسن حتى وقع في هاوية الهلاك من غره معسول قولها وعظيم دهائها

22 - وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ *** فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ (شِدَّةُ جُوعٍ) (شِدَّةُ شَبَعٍ)

وهي ماكرة مخادعة إذا رأت منك الشدة عليها دسّت لك ما يُخادعك ويلين من شدتك كالجوع الداعي إلى الإقدام على ارتكاب المحرمات كالسرقة والغدر، والشبع المؤدي إلى البطر والكبر والزنا وشرب الخمر

23 - وَاسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدِ امْتَلَأَتْ *** مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ (طَرِيق) (النَّدَمِ الحامي من المعاصي)

فإذا غلبت النفس وقهرت دسائسها فارجع إلى الله بالتوبة واذرف الدمع من عين طالما نظرت إلى المحرمات ولم تخش بارئ السماوات

24 - وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا *** وَإِنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ (أظهَرَا لَكَ الإخلاصِ)

ولا تنسى شريك النفسِ الذي يُغريها إذا تهاونت، ويحثها إذا تباطأت وهو الشيطان. فنصيحتي إليك أن لا تركن إلى واحدٍ منهما وأن تهمهما في كلِّ نصيحةٍ يُقدمانها إليك مهما ظهر لك صلاحها

25 - وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلَا حَكَمًا *** فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ

وأسيء الظنَّ بهما على الدوام، سواء من ظهر منهما بمظهر الخصومة لك ومن تظاهر بالورع والتقوى واحتلال منصة العدالة، فكلاهما غير مؤتمن، لأنهما تحالفا على الإيقاع بك

26 - أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِلَا عَمَلٍ *** لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عُقُمِ (ذُرِّيَّةً) (من لا يُنجِب)

هنا يتذكّر النّاظم رحمه الله تعالى قوله تعالى {كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أنْ تَقولوا ما لا تَفْعَلون} فأستغفر الله وقال ما نسبة هذه النَّصائح الغالية والأقوال الجميلةِ إليّ إلا كنسبة ولدٍ لِعَقيم لا يلد وكبر مقتاً عند الله أن يلحق الإنسان ولدا بغير أبيه وأمه

27 - أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ *** وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ (مَا فَعَلتُه أَنَا) (فلماذا)

وكيف لا أستغفر الله وقد أمرتك بفعل الخير وأنا بعيد عنه، وحثثتك على لزوم الاستقامة وأنا لم أستقم بعد، وما زلت حائداً عن سبيل الرَّشاد

28 - وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً *** وَلَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ وَلَمْ أَصُمِ (قدّمتُ لِنَفسي) (مَا يزيدُ عن الفَرضِ) (سِوى الفَرضِ)

وأين أنا من الاستقامة وما تزودت قبل موتي بِنافلةٍ من الصلاة والصيام، إذ لم أصلِّ ولم أصُم سوى ما فرض الله عليَّ

